

أنشطة المجالس في المغرب خلال العهد الفاطمي
(296-362 هـ / 909-971 م)

أ/ أحمد ندات

جامعة يحي فارس - المدينة-

الملخص باللغة الفرنسية:

La période maghrébine connaissait un changement très important en son histoire politique pendant l'âge fatimide (909-971) pendant cet âge, elle s'est transformée d'un wilaya ou une Provence en un khalifat, et pendant lequel, la doctrine ismaélienne officielle a dominé par force les autres doctrines, elle a été donc, véritablement la fin d'une ère, et le commencement d'une autre; et de ce côté, la question pressante est: est ce -que cet changement (politique et doctrinal) a été accompagné d'une activité scientifique bien organisée? quel est le sens de ces activités et leur utilité dans une position qui élève de la chose du texte, et prend la doctrine en une identité religieuse?

مقدمة:

عرفت المرحلة المغربية من عمر الدولة الفاطمية (296-362 هـ / 909-971 م) تحولا كبيرا في تاريخها السياسي، ففيها تحولت من ولاية أو إمارة إلى خلافة، وفيها هيمن المذهب الإسماعيلي "الرسمي" بالقوة على بقية المذاهب الأخرى، فكانت بحق نهاية عهد،

وبداية عهد آخر¹، والسؤال الملحّ في هذا الصدد هو: هل واكب هذا التحوّل السياسي والمذهبي نشاط علمي منظم؟ ما هي فحوى هذه الأنشطة وجدواها في بيئة تُعلي من شأن النصّ، وتتخذ من المذهب هويّة دينية؟

أنشطة المجالس العلمية:

أشار بعض المؤرّخين إلى أنّه من التعسّف الربط بين التاريخ السياسي والتاريخ الفكري لعصر من العصور، إذ ليس من الضروري أن يكون للأدب والثقافة في لحظات الضعف والتراجع أو فترات القوّة والازدهار، علاقة عضويّة جدليّة بالسياسة والدولة في أطوار ضعفها، أو في عهود قوّتها وازدهارها²؛ غير أنّه وفي العهد الفاطمي، كان للتحوّل السياسي تأثير خاص إذ جاء في وصف المرحلة، لدى محمد النيفر قوله: "تحوّل ثقافي جديد ومنعرج أدبي مستحدث يناسب ويوازي، بل لعلّه نتيجة وإفراز، لذلك التحوّل السياسي المذهبي الحضاري"³.

لم يقتصر هذا التحوّل على مجال واحد، بل شمل المجالات الفكرية عامّة، وأثر في طرائق البحث، ومضامين المناظرات والجدل، حيث انتقلت البحوث العامّة إلى اختيار مواضيع لها علاقة بالعقيدة الشيعيّة حول حقّ آل البيت والصحابة، وفضل الأئمّة، وهي بحوث انعكست على مؤلفات العصر الفقهيّة، وعلى الرغم من أنّ الحياة الفكرية ليس لها ارتباط وجودي بالنظم السياسيّة، أو الأسر الحاكمة لتظهر بظهور تلك النظم والأسر، وتختفي باختفائها، بل ترتبط بحياة العلماء والأدباء والمفكرين، إلا أنّ الاستثناء الذي أحدثه الفاطميون هو في المكانة التي تبوّأها الأمام باعتلائه هرم الفكر الدّيني والفلسفي، مقدّما نموذجاً

1-نشيدة رافعي: الحياة الفكرية والثقافية في المغرب في العصر الفاطمي 296 - 362هـ رسالة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ بكلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة الجزائر، 2002-2003م، ص 365 .

2-نشيدة رافعي: نفس المرجع والصفحة .

3-محمد النيفر: الحياة الأدبيّة بإفريقية في العصر الفاطمي بالمغرب، 296-362هـ، تونس، 1992، ص 17.

للمحاكم المثقّف، والمرجع المهمّ للتصويب والإشراف المباشر على الحياة الفكرية في مملكته، مما حدا ببعض أن يعنت الدولة الفاطمية بدولة "الثقافة والمثقف"¹.

1- مجالس المناظرات والجدل الديني:

ترامت نشأة المناظرة في مرحلة مترادفة مع نشوء علم الكلام²، وكانت أدواته الرئيسية للنقاش. ففي المشرق، ظهرت مناظرات كثيرة بين علماء وفلاسفة إسلاميين، يمثّلون اتجاهات مختلفة، ويتبنون أفكار وعقائد ودعوات تتعارض مع بعضها البعض، ظهر فيها جلياً حرية التفكير في التعبير عن الآراء والمعتقدات، كما ظهر دور الفلسفة في وجودها³، ومن المناظرات المشهورة: مناظرة ابن عربي لفخر الدين الرازي، ومناظرة داعي دعاة الدولة الفاطمية المؤيد في الدين لأبي العلاء المعري⁴.

وفي بلاد المغرب، ظهرت ففة من العلماء لم تؤيد المناظرات الكلامية، لما تولّده من التعصبات وفتح باب النقاش في مسائل لا طائل منها، ولكنهم استعملوها وسيلة ملائمة للنقاش في علم الفقه⁵، لا سيما مسائل الخلاف بين المذاهب المختلفة؛ فبواسطتها يتمّ التوصل إلى الكثير من الأحكام الفقهية.

وقد تكون المناظرة في أصول الفقه وهي الكتاب والسنة والاجتهاد. وهنا تبرز المناظرة أداة، توفر أرضية ملائمة للفقهاء لإثبات قدراتهم الفقهية، وفسح مجال الاجتهاد أمامهم.

1- عليّ نوح: الإسماعيلية بين خصومها وأنصارها، ط 1، دار التوحيدي للنشر، سوريا، 2000، ص 122.

2- محمد عبد الغني الشيخ: النثر الفني في العصر العباسي الأول، د.م.ج، الجزائر، 1983، ج 1، ص 36-37.

3- مقدّمة كتاب: المناظرات للرازي، تحقيق: عارف تامر، ط 1، مطبعة عزّ الدين للطباعة، بيروت، 1992، ص 11.

4- كانت المناظرة حول فلسفة أبي العلاء واجتنبه أكل اللحم، أنظر: بين أبي العلاء المعريّ وداعي الدعاة الفاطمي خمس رسائل مفيدة، المطبعة السلفية ومكتبها، القاهرة، 1349 هـ.

5- كانت الغاية الرئيسية من المناظرات في البداية هي الدرس والاستفادة العلمية. أنظر: علياء هاشم ذنون محمد المشهداني، فقهاء المالكية، دراسة في علاقتهم العلمية في الأندلس والمغرب حتّى منتصف القرن السادس للهجرة، أطروحة دكتوراه، إشراف: مزاحم علاوي الشاهري، ص 128.

ومن هنا عدت المناظرة دائما، معاكسة للتقليد، وأكثر من عُرف من الفقهاء باهتمامه بالمناظرة وممارستها، عُرف أيضا بالمقابل بتركه للتقليد، مثل قاسم محمد بن القاسم وحسن بن سعد بن إدريس (ت332هـ / 943م)، مع هذا اهتم فقهاء المالكية بالتقليد. والسؤال المهم الذي يثيره موضوع المناظرات في بلاد المغرب وهو: هل لوجود الإسماعيلية بما عرف عنهم من تجاوز للمناهج التقليدية في البحث، من أثر في تفعيل مجالس المناظرات في مسائل هي من أصول الدين عند أهل السنة من المالكية؟

لقد كان للعديد من الفقهاء المالكية خبرة ودراية بالمناظرة، فبعضهم ناظر في رحلته إلى المشرق مثل قاسم بن محمد بن محمد بن قاسم الذي ناظر محمد بن عبد الحكم، والمزني في مصر¹ وأحمد بن ملول (ت262هـ/875م) الذي ناظر محمد بن عبد الحكم أيضا².

وقد دخل فقهاء المالكية في المغرب في مناظرات مع فقهاء الحنفية، فقد كان المذهب الحنفي المنافس الرئيسي للمالكية، خاصة أنه كان المذهب الرسمي للدولة الأغلبية، ومن جرأ تلك المنافسة حصلت مناظرات بين عدد من فقهاء المذهبين، وبعض تلك المناظرات تمت بإشراف أمراء الأغلبية³ كما اشتهرت المناظرات الفقهية، وهي نوع من التدريب على الفتوى والحصول على المهارة في استنباط الأحكام الفقهية، وهي تنحصر غالبا بالتناظر في كتب المالكية الرئيسية وفي مقدمتها الموطأ والمدونة⁴؛ وكانت الغاية الرئيسية منها الدرس والاستفادة

1-الخشني:أخبار الفقهاء،ص304 نقلا عن: علياء هاشم ذنون محمد المشهداني،المرجع السابق. ص126.

2-القاضي عياض ، ترتيب المدارك، ج 4، ص 235 .

3-ناظر فقهاء المالكية فقهاء الحنفية، وبعض تلك المناظرات تمت بإشراف أمراء الأغلبية. مثل مناظرة أبي محرز محمد بن عبد الله مع أسد بن الفرات، عند الأمير زيادة الله بن الأغلب، في موضوع تحريم النبيذ.أنظر: أبو العرب ،طبقات علماء إفريقية ،ص172؛الملكي، رياض النفوس تح: بشير بگوش ،ط 2 ،دار الغرب الإسلامي، بيروت،1994، ج 1، ص 288. ومناظرة أخرى عقدت أيضا بإشراف الأمير زيادة الله ،تناظر فيها الجعفري والعنبري في موضوع خلق القرآن .أنظر:أبو العرب ،نفس المصدر، ص 172. ولأبي العباس عبد الله بن طالب مناظرة مع الفقيه الحنفي ابن عبدون في عهد إبراهيم بن الأغلب، وفيها ظهر سعيد ابن الحداد الذي آزر ابن طالب، وانتهت المناظر بانتصاره .أنظر :القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 4، ص ص 326-327.

4-علياء هاشم المشهداني: نفس المرجع، ص 128 .

العلمية¹. وبالرغم من ذلك فإنّه ومنذ القرن الثالث للهجرة شاع التقليد كثيرا بين الفقهاء بصورة عامة، بحيث أصبح ذلك في القرون التالية صفة ثابتة لغالبية الفقهاء من مختلف المذاهب الفقهية، وقلة قليلة من كان يعدّ منهم مجتهدا².

على أنّ بلاد المغرب شهدت مجالس للمناظرات من نوع آخر، كانت انعكاسا لظروف سياسية مرّت بها خلال الحكم الفاطمي، حيث اتخذ الفاطميون المناظرة وسيلة لإقناع الناس بتغيير مذهبهم³، وسعوا إلى ضرب الرقابة التي سلّطها علماء المالكية على الحياة الفكرية، وشجّعوا على تعاطي مختلف أنواع العلوم مثل الفلسفة والتأويل إلى جانب الجدل والشعر، وهو ما سمح بتوفير فرصة لعلماء إفريقية كي يخرجوا من مجالات الفقه العقيمة والضيقة⁴. كما تطلّب الأمر اتخاذ موقف الدّفاع والجهاد العلمي ضدّ المذهب الجديد⁵ فقد شهدت القيروان مجلس مناظرة، بين فقهاء المالكية عقد لتلك الغاية في جامع القيروان برئاسة ربيع القطّان⁶، ومن حضر من الفقهاء أبو سعيد خلف بن عمر وأبو الأزهر بن معتب، وأبو محمد بن أبي زيد، وعبد الخالق بن شلبون، وابن الثّبّان وأبو الحسن القابسي ومحمد بن أحمد السدري وابن أخي هشام وعمر بن محمد السعال وعبد الله بن عامر بن الحداد وابن أبي الليث مولى ابن اللباد وعبد الله بن الأحديري⁷.

ومن مناظراتهم في القيروان، المناظرات التي تّمت مع أبي عثمان سعيد ابن الحدّاد الذي ناظر أبرز علماء الفاطميين، مع أنّ البعض نصحه بالتيقّة، بتجنّب المناظرة، إلاّ أنّه أصرّ

1- عن بعض تلك المناظرات أنظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج. 5، ص 67، 111، 129؛ علياء هاشم المشهداني: المرجع السابق، ص 128، 133.

2- نفسه، ص 126.

3- الدباغ: معالم الإيمان، تح. محمد الأحدي أبو التور ومحمد ماضور، ط. 2، المكتبة العتيقة بتونس، 1968، ج 2، ص 298.

4- نجم الدين المصنعي: المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس، تبر الزمان، تونس، 2004، ص 157.

5- مكّن الصراع المذهبي من بروز المدرسة الكلامية السنيّة بإفريقية وتألقها، إذ أنّها عرفت أوج ازدهارها في بداية العهد الفاطمي، وقد تمّ ذلك على يد رئيسها سعيد بن الحداد (302هـ/915م). أنظر: علياء هاشم المشهداني، المرجع السابق، ص 157.

6- القاضي عياض: المصدر السابق، ج. 5، ص 297، 310.

7- نفس المصدر والصفحة.

عليها نصرًا لمذهبه، ولم يخف من هيبته السلطان أو بطش الفاطميين بل كان رابط الجأش في المناظرة واثقا من قوّة حجّته وقدرته¹، تولى مناظرة الفاطميين وممثليهم، في بعض المسائل التي مثّلت محلّ خلاف كبير بين أهل السنّة والشيعّة والفرق الأخرى، مثل مسائل القياس وتفضيل عليّ بن أبي طالب والتّصلية عليه وحديث غدِير خَمّ وربما جَمَلت هذه المناظرات ببيت الحكمة² وقد عرّفنا الخشني بأربعة مجالس منها لكن بصفة مقتضبة³، أمّا المالكي فقد تميّزت أخباره عن هذه المجالس بالإطناب والدّقة⁴، ويظهر أنّها عقدت أوّلا بحضور أبي عبد الله الصنعاني⁵، ثمّ بحضور أبي العباس أخي أبي عبد الله⁶، وأخيرا بحضور عبيد الله المهدي⁷ وهي تمثّل محاولات قام بها هؤلاء الحكماء لإقناع أهل السنّة بالتحوّل إلى المذهب الشيعي، ظلّا منهم أنّ علماء إفريقية قاصرون عن الدّفاع عن أنّجاهم السنيّ، إلا أنّ تَمَرَس ابن الحداد وأتباعه من المدرسة الكلاميّة جعل أبا العباس ثمّ المهديّ يعمدان إلى استعمال القوّة لنشر الاتّجاه الشيعي⁸.

وإلى جانب ابن الحداد نذكر أبا بكر بن هذيل، وإبراهيم بن محمد الضبيّ الذي كان يقول: "إني أتكلّم في سبعة عشر فتّا من العلم"⁹ هذان العالمان قتلها أبو العباس سنة (ت297هـ/909م)، وهما من تلاميذ ابن الحداد، إلى جانب أحمد بن موسى التّمّار

1- الخشني: طبقات علماء إفريقية، ص 199.

2- نجم الدين الهنتائي: المرجع السابق، ص 157-158.

3- طبقات علماء إفريقية، ص 199، 212.

4- المالكي: رياض النفوس، ج 2، ص 76، 96.

5- كان موضوع المناظرة الأولى حجّية القياس، ورفع الشبهة عن كبار الصحابة (ض)، وإظهار مكانة عليّ بن أبي طالب (ض)، ويظهر فيها تسامح الدّاعي وولنيه مع مناظرة. أنظر: المالكي، المصدر السابق، ص 175 وما بعدها؛ ويورد الخشني (ص 199) هذه المناظرة لكن يذكّر أنّ مناظرة هو أبو العباس، وليس أبا عبد الله.

6- كان موضوع المناظرة النّاتية في أفضليّة عليّ (ض)، والحديث عن الخاصّ والعام، والظاهر والباطن، والألوهيّة والربوبيّة وكلّها في أصول الدين وأصول الفقه. أنظر: المالكي: المصدر السابق، ص 86-87 وما بعدها.

7- المالكي: المصدر السابق، ج 2، ص 58-59 وما بعدها من عدّة صفحات.

8- نجم الدين الهنتائي: المرجع السابق، ص 158.

9- الخشني: الطبقات، ص 215-216.

(تـ329هـ/940م) الذي يعنى بالمناظرة والجدل¹، ومحمد الرقادي(تـ316هـ/928م) الذي أخذ في الذبّ عن مذهب السنّة على معاني سعيد بن الحدّاد وكان حادًا حاذقًا بصيرا بحدود المناظرة، حاضر الجواب مليح المناظرة وألّف كتبًا كثيرة في ذلك وكان ظهوره واشتهاره بعد سعيد بن الحدّاد²، ومحمد المعروف بابن أحد الشركاء الذي يتكلم في الجدل على معاني سعيد بن الحدّاد³.

وبعد اضطهاد بعض أتباع المدرسة الكلاميّة، وهي عمليّة محدودة زمنيًا⁴، اهتمّ الحكّام الفاطميّون باضطهاد أتباع المذهب المالكي، وقد أكّد الخشني ذلك بقوله: "ودارت على الناس كثير دوائر من قتل وضرب، إلاّ أهم ليسوا من العلماء، كدائرة عروس في خلج لسانه⁵."

أمّا الحكّام الفاطميون فقد اتّسموا بقوة الجدل في المجالس التي يعقدونها، نظرًا لسعة ثقافتهم وتمكّنهم من الأداء ووسائله، وتفانيهم في الدّفاع عن معتقداتهم، فهذا المنصور يشجّع المعرّ على مناظرته حيث قال القاضي النعمان: "سمعت المعرّ يقول في مجلس: كان المنصور إذا أفادني شيء من العلم والحكمة، ربّما قال لي: عاودني فيه وسلني عنه، وعن معانيه، وناظرني واحتجّ عليّ⁶."

ومن أنواع المناظرة ما كان لإثبات الرأي، مثل طلب المنصور من لمعزّ عرض إشكالاته فلمّا صرّح المعرّ أنّ قوله لا إشكال فيه، طلب منه أن يأخذ موقف العدو المخالف في الرأي لأنّ العلم والحكمة، في رأي المنصور، لا يثبتان في القلوب، إلاّ بعد الحجّة والمعارضة⁷.

1الخشني: الطبقات، ص 171 .

2نفسه، ص 217-218 .

3نفسه: ص 219 .

4نجم الدين الهنتاتي: المرجع السابق، ص 159 .

5الخشني: المصادر السابق، ص 232.

6القاضي النعمان: المجالس والمسائرات، تحقيق: إبراهيم شيوخ وآخرون، ط 1، دار المنتظر، بيروت 1996، ص 133.

7نفسه، ص 117 .

إن شعو الشيعة بتفوقهم على غيرهم ونظرتم لغيرهم كان فيها الكثير من السخرية والفرقة وهذا ما لمسناه عند القاضي النعمان وهو يورد حديثا بين قبيلة كتامة ورئيسها¹.

2 - نشاط مجالس الدّعوة:

كانت الدعوة الإسماعيلية مضطّرة لأن تذيع وتنتشر تعاليمها سرّاً، في دور السّتر²، وعمل الأئمة على نش تلك التعاليم من خلال دعاة، الذين كانوا يدعون الناس لإتباع الإمام، وبلقّنون المستجيبين (الحكمة)، والداعي باعتباره معلما هو أكثر الشخصيات المميزة للحركة الإسماعيلية³ فكانت ممارسة الإسماعيليين منذ البدايات الأولى للدعوة، أن يقوموا بإيصال (الحكمة) إلى تلاميذهم، عبر جلسات تعليمية، عرفت بـ : مجالس الحكمة⁴.

ولكن بعد استيلاء الإسماعيلية على بلاد المغرب أولا، ثمّ مصر بعد ذلك، أقيمت لإلقائها مجالس خاصّة يلقي فيها الإمام الإسماعيلي الدعوة أحيانا، أو بابه الذي عرف بعد ذلك بداعي الدّعاة⁵ في أكثر الأحيان نيابة عن الإمام. وبقيام الحكم الفاطمي صار بإمكان الدعوة العمل علنا، داخل مجال النفوذ الفاطمي، ولم يعد الدّعاة مضطرين للعمل سرا إلا خارج حدود أراضي الفاطميين. واتخذت مجالس الحكمة صفة مؤسّساتية، لكن لم يكن بإمكان أحد المشاركة فيها بالطبع سوى أولئك الذين قطعوا على أنفسهم العهد.

1- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 85.

2- نادرا ما كان يظهر الدّعاة للجمهور علنا، بل يفضلون مخاطبة أناس معيّنين مستقلّين، وإثارة الرغبة لديهم في معرفة أسرار الدعوة، فإذا استجاب للدّاعي، أخذ عليه العهد بالمحافظة على سرّيّة الدعوة، وذلك قبل البدء بتلقينه. عن طريقة العهد الذي يُلزم به الدّاعي المستجيب أنظر: هانز هام، العهد الإسماعيلي ومجالس الحكمة زمن الفاطميين، ضمن كتاب: الإسماعيليون في العصر الوسيط، تاريخهم وفكرهم، القصير، ص ص 99، 124.

3- هو الذي يعدّ هذه المحاضرات، ويرفعها إلى الإمام فيؤقّعها هذا بعلامته، ويعيدها إلى كبير دعاة فيلقها على المستجيبين. محمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطميّة، ص 54.

4- هانز هام: المرجع السابق، ص 107.

5- باب الأبواب أو داعي الدّعاة هو دون الحجّة وفوق الدّعاة، أنظر: مقدّمة محقّق كتاب، تأويل الدّعاتم، ج 1 ص 39. ويذهب القريري إلى أنّ مرتبة داعي الدّعاة كانت من مفردات الدّولة الفاطميّة في مصر، و داعي الدّعاة لا يستتر، بل هو معروف بين الدّعاة جميعا. محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية، ص 140. أمّا في الدّور المغربي فلم يظهر هذا اللقب. هانز هام: المرجع السابق، ص

تختلف هذه المجالس باختلاف الدّاعي، فمجالس القاضي النعمان في تأويل فقه الفاطميين والمؤيد يميل في تأويله إلى فلسفة المذهب، أمّا المجالس المستنصرية فهو تأويل بدائي¹، وأسلوب التدريس في مجالس الدّعوة في الدور المغربي يوضّح الطرق التي مارسها الدّعاة في تعليمهم للعامة²، وبذات الطريقة تماما، يقوم أول داعي في بلاد المغرب بتعليم أتباعه من بربر كتامة، حيث أورد النعمان في كتاب "افتتاح الدعوة" وصفا للطريقة التي سلكها الدّاعي في عمله فكان من البداية: "يجلس لهم ويحدّثهم بظواهر فضائل عليّ بن أبي طالب (ض) والأئمّة من ولده عليهم السلام، فكلمّا رأى واحدا منهم قد تلقّن، وأحسنّ فيه ما يريد، ألقى إليه شيئا بعد شيء متى يجيبه فيأخذ عليه"³.

لقد ظهرت نتائج الدعوة في عشيرة بني سكتان، الذين منحوه ضيافتهم وحميتهم. فكانوا أول من لقن في المعتقد الإسماعيلي في المغرب: "ودعا جماعة من بني سكتان فاخلوا له مجلسا للسمع، وكانوا يقومون بضيافة من يأتيه، ويرد عليه"⁴، "وكان يتعهدهم بالوصايا والتذكرة ويكرر عليه المواعظ والحكمة فيجمعهم لذلك ويجلس لهم أكثر أيامه، ويأمر من أطلقه من الدعاة بذلك ويرببه عليه، فكانت أيامهم أكثرها مشاهدة وسمع ومواعظ⁵، كما شاركت النساء في هذه المجالس لسمع الحكمة"⁶، وبعد مقتل الداعي أبي عبد الله الشيعي، سنة (298هـ/911م)، خلفه في منصب داعي الدعاة واحد من تلاميذه الأكثر موهبة، بربري من كتامة من قبيلة ملّوسة يدعى أفلح بن هرون الملوسي.

1- محمد كامل حسين، المرجع السابق، ص 55.

2- موضوع العلاقة بين المعلم والتلميذ كان موضوعا لواحد من أقدم أعمال الأدب الإسماعيلي، (كتاب العالم والغلام)، المنسوب إلى أول داغ في اليمن، ابن حوشب منصور اليمن. وعلى الرغم من أن حبكة (حكاية التلقين) هذه خيالية، إلا أنّها تمثل انعكاسا للممارسة التي كان يطبقها الدعاة الأوائل. أنظر: جعفر بن منصور اليمن، العالم والغلام، ضمن كتاب: أربع كتب حقائبة، تحقيق: مصطفى غالب، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط.2، 1978.

3- الافتتاح، ص 49.

4- نفسه، ص 53.

5- نفسه، ص 128.

6- نفسه، ص 132.

لدينا بخصوص نشاطات أفلح بن هارون، رواية هامة جدًا، تتبع من سيرة الإمام المهديّ لا بدّ أنّها كانت سيرة من تصنيف الدّاعي أبي عبد الله بن الأسود بن الهيثم¹، وكان المؤلّف يعرف أفلح شخصيًّا، وبمناسبة حديثه عن وفاة أفلح، يتذكّر أسلوبه في التدريس في مجالس الحكمة: "وسمعت عنده دعوة النساء، وما يخاطبهنّ به من الدلائل التي تقبلها عقولهنّ ويحفظنها، وكان يقول فلله الحجة البالغة، وقال: هي الحجة التي يخاطب بها العالم من علمه والجاهل من حيث يعقل. ولقد كان يخاطب المرأة، ويقيم لها الدليل من حليّتها، وخاتمها وخنقها، وخلخالها وسوارها، وثوبها وعجارها، ومن الغزل والشعر واللباس وغيره ممّا هو من حلية النساء، وكان يخاطب الصانع من صناعته، ويخاطب الحيّاط من إبرته وخيطه وحلقته ومقصّته، ويخاطب الزاعي من عصاه وكسائه"².

وعندما توفي أفلح بن هارون قبل عام (311هـ/923م) خلفه على باب الترجيح أبا عبد الله بن الأسود بن الهيثم، الذي ندين له بجزير قصير يكشف أساليب الدّعوة. وليس لدينا أيّ شهادة أخرى على الفترة الفاطميّة المبكّرة، توضّح الأساليب التي مارسها الدّعاة في تعليمهم للعامة³.

وفي العام 336هـ/948م، قام المنصور بتعيين النعمان بن محمد، الذي كان حتى ذلك الوقت قاضيا على طرابلس، قاضيا للقضاة⁴، وتضمّنت كتابات القاضي النعمان روايات عديدة بخصوص تعاليمه التي تناولت كل من الظاهر والباطن⁵.

رأى الأئمّة الاعتماد على مجالس الدّعوة، لبث أفكار وعقائد المذهب الإسماعيلي بمعنى أنّهم أرادوا أن تكون مدارس الدّعوة أداة اتّصال بينهم وبين أشياعهم، لا بينهم وبين رعاياهم

1-هانز هالم: المرجع السابق، ص 108.

2-عماد الدّين إدريس: عيون الأخبار، ج. 5، ص 137. نقلا عن: هانز هالم، المرجع السابق، ص 108.

3-هانز هالم: نفس المرجع والصفحة.

4-القاضي النعمان: المجالس والمساربات، ص 348.

5-حول كتابات القاضي النعمان، أنظر: مقدّمة كتاب الهمة، تحقيق: محمد كامل حسين، ص 11-12.

عامّة حتى تظلّ زعامتهم عليهم قائمة، ويظلّ المذهب الإسماعيلي رائجا بينهم وحتمت عليهم المرحلة الجديدة، التي هي مرحلة الظهور مواجهة التحديّ بالحجج، عن طريق مجالس منتظمة¹.

كان العمل يتمّ وفق نظام محدّد، بأنّ يلقي أحد الدعاة دروس الدعوة في هذه المجالس، بعد موافقة الإمام الإسماعيلي وتوقيعه²، وحدّدوا للدعوة مكانا خاصا يسمّى "المخول"، وهو أشبه بقاعات المحاضرات في عصرنا الحديث³.

يذكر النعمان أنّه سمع بعضهم يحرّض بعضا في الاجتماع لقراءة كتاب الدّعائم، الذي بسطه المعزّ لهم وجعله في مجلس من مجالس قصره، وأباح لهم متى أحبّوا استماعه وقراءته واستنساخه والتعلّم منه والتفقّه فيه⁴ وتعقد هذه المجالس أحيانا في أماكن ثلاث: القصر المسجد، ودور العلم المعروفة بدور الحكمة أيام الإسماعيليّة، فكلّ المجالس التي عقدها الدعاة هي مجالس تعليميّة، ولكن لهذه المجالس درجات⁵، ولم تقسّم على حسب الطبقات الاجتماعية لجمهور المؤمنين، إنّما قسّمت على حسب مرتبة الحاضرين في مدارج الدعوة⁶. والشريعة، طبقا للمدرسة الفقهية الإسماعيلية، كانت في متناول جميع المسلمين، لأنها تشكل القاعدة الشرعية للحياة اليومية للجميع، لكن بما أنّها كانت حديثة العهد، والقاضي النعمان نفسه كان قد صنفها بناء على التراث الشيعي، فقد كان من الواجب تعريف الناس بها، وهذا ما تمّ القيام به في صورة مجالس تعليمية عامة، لذلك كانت مجالس التعليم الظاهر، أي الفقه

1- تكب هذه المجالس عادة على أنّها صادرة عن الإمام، لذلك يخفي اسم الداعي ولا يظهر في كتب المجالس. محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطميّة، ص 54. وذكر النعمان أنّ هذه المجالس كانت تلتقى كلّ يوم جمعة لسماع الحكمة. القاضي النعمان: المجالس والمساربات، ص 487.

2- محمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطميّة، دار الفكر العربي، 1970، ص 54.

3- منتخبات إسماعيلية، تحقيق: عادل العوّا، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، 1958، ص 17.

4 القاضي النعمان: المجالس والمساربات، ص 306.

5- ذكر ابن النديم في "الفهرست" أنّ من كتب الباطنية الإسماعيلية: "البلاغات السبعة"، فالبلاغ الأول للعامّة والثاني لمن فوقهم قليلا، والثالث لمن دخل في المذهب مدة سنة، والرابع لمن دخل لمدة سنتين، والخامس لثلاث سنين، والسادس لأربع سنين، أما السابع ففيه نتيجة للمذهب والكشف الأكبر، قال: "قال محمد بن إسحاق: قد قرأته فرأيت فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها". أنظر: ابن النديم: الفهرست، تج. رضا تجدد، طهران، ط. 1، 1971، ص 240؛ وذكر عبد القاهر البغدادي أنّ "البلاغ الأكبر والناموس الأعظم" هو رسالة عبيد الله بن الحسين القزويني إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي. البغدادي: الفرق بين الفرق، تحقيق: محمّد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا، القاهرة، د.ت، ص 256.

6- محمد كامل حسين، المرجع السابق، ص 54.

الإسماعيلي عامة، مفتوحة لكلّ راغب، وكان القاضي النعمان يعقد هذه المجالس كلّ يوم جمعة، في أعقاب صلاة الجمعة، ما بين صلاتي الظهر والعصر، وفي المسجد الكبير بالقيروان، ثمّ في مسجد المنصوريّة الذي حمل اسم الأزهر فيما بعد¹.

أمّا مجالس الحكمة أو "دروس الباطن"، فقد كان دخولها مقتصرًا على المستجيبين، وتمّ عقدها داخل مقرّ الإمام في المنصوريّة²، وكان النعمان هو من يعقد هذه المجالس أيضًا أيام الجمع، لكن بعد صلاة العصر، عندما ينصرف الجمهور ولا يبقى إلا أولياء الله، كما كان الإسماعيليون يسمون أنفسهم³، ويصف لنا النعمان كيفية تنظيم تلك المجالس في قصور المنصورية زمن فترة حكم المعز فيقول: "ولما فتح المعز لدين الله للمؤمنين باب رحمته واقبل عليهم بوجه فضله ونعمته، أخرج إليّ كتبًا من علم الباطن، وأمرني أن أقرأها عليهم في كل يوم جمعة في مجلس في قصره المعمور بطول بقاءه، فكثرت الأرحام... وقيل له في ذلك ووصف له أن فيمن شملته الدعوة أهل تخلف ومن لا يكاد يفهم القول، وإن مثل هؤلاء لو ميزوا وجعل لهم مجلس يقرأ عليهم فيه ما يحتملون ويفهمون، لكان أنفع لهم"⁴.

إن ما ألقاه القاضي النعمان في "مجالس الحكمة" تلك وصلنا في كتابه، "تأويل الدعائم" وهو الكتاب الباطني المعادل به الظاهري في الفقه الإسماعيلي، فأحدهما يمثل الظاهر، والآخر الباطن، وكل فصل من فصول "التأويل" المائة والعشرين يحمل العنوان المميز "مجالس".

الخاتمة:

في الأخير، وإذا جاز لنا قياس تاريخ الفكر على التطوّر السياسي بالمغرب نقول: إنّ الحياة الفكرية الفاطمية بالمغرب مرّت بأربع مراحل هامّة، مثّل كل مرحلة منها، فترة حكم إمام من أئمّة الفاطميين، حيث كانت مرحلة حكم عبيد الله (297-322هـ) وابنه القائم (322-334هـ) مرحلة الدعوة والتأسيس، أين احتدّت المجادلات والمناظرات الفقهية والعقلية،

1- هانز هالم: العهد الإسماعيلي ومجالس الحكمة زمن الفاطميين، ضمن كتاب: الإسماعيليون في العصر الوسيط، تاريخهم وفكرهم، القصير، ص 109.

2- هانز هالم: نفس المرجع والصفحة.

3- القاضي النعمان: المجالس والمساربات، ص 487.

4- نفس المصدر، ص 386.

تلتها مرحلة المنصور (334-341هـ) التي مهّدت لانبعث نشاط فكري كبير في عهد المعزّ (341-362هـ)، بلغ أقصاه مع مجالس الحكمة التأويلية وازدهار النشاط التألّيفي وذلك مع إسهامات القاضي النعمان وابن منصور.